المحور الرابع: جورج زيدان والرواية التاريخية مع مقارنته بعلي أحمد باكثير

مقدمة:

تُعدّ الرواية التاريخية من أبرز الأجناس السردية التي أسهمت في بلورة الوعي الأدبي الحديث في العالم العربي، إذ جاءت في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين استجابةً لتحولات فكرية وثقافية كبرى عرفتها المجتمعات العربية آنذاك، فقد مثّل هذا الجنس الروائي جسرًا بين الماضي والحاضر، من خلال استعادة الوقائع التاريخية وصياغتها بأسلوب سردي فني يعكس تطلع الأديب العربي إلى إحياء التراث وإعادة قراءة التاريخ في ضوء النهضة الفكرية الجديدة.

لقد كانت الرواية التاريخية المدخل الفعلي لتطور الفن الروائي العربي، إذ وفّرت للقارئ العربي في زمن لم يكن قد ألف بعد الرواية الفنية، متنًا مألوفًا من أحداث التاريخ وشخصياته، ومن هنا جاء الاهتمام بتوظيف التاريخ الإسلامي والعربي في بناء نصوص سردية تمزج بين المعلومة التاريخية والخيال الأدبي، بهدف التثقيف والترفيه معًا.

وفي هذا الإطار برز جورج زيدان (1861–1914) بوصفه أحد أوائل من صاغوا التاريخ في قالب روائي، فحوّل أحداث الماضي العربي والإسلامي إلى حكايات سردية تُقدَّم بلغة مبسطة لجمهور واسع، لم يكن زيدان معنيًا بالجانب الفني الخالص، بقدر ما كان هدفه ترسيخ الوعي القومي، وبعث روح الانتماء إلى التاريخ العربي المجيد، فقد مثّلت رواياته، مثل فتاة غسان وصلاح الدين الأيوبي والعباسة أخت الرشيد، محاولة لتوظيف الأدب في خدمة المشروع النهضوي والتنويري، غير أنّ الرواية التاريخية لم تتوقف عند هذا البعد التعليمي، إذ تطورت لاحقًا مع جيل جديد من المبدعين الذين أعادوا النظر في العلاقة بين التاريخ والأدب، وفي مقدمتهم علي أحمد باكثير (1910–1969)، فقد انتقل باكثير بالرواية التاريخية من مرحلة السرد التوثيقي إلى مرحلة التأمل الفني والفكري، حيث أصبح التاريخ مادة للتفكير في الحاضر واستنطاق أسئلة الهوية والمصير الإنساني، إنّ رواياته مثل وا إسلاماه والثائر الأحمر وسلامة القس تقدم التاريخ لا كوقائع ماضية فحسب، بل كمرآة تعكس تحولات الإنسان العربي وقضاياه الراهنة.

ومن هنا يتبين أن الرواية التاريخية في الأدب العربي مرت بمسار تطوري واضح: بدأت مع جورج زيدان كأداة لتبسيط التاريخ وتعليم القارئ، ثم نضجت مع علي أحمد باكثير لتغدو فضاءً فنيًا وفكريًا يتجاوز التوثيق نحو التأويل والإبداع الجمالي، هذا التحول يعكس في جوهره تطور الوعي الأدبي العربي ذاته، من الانشغال بالماضي بوصفه مادة للحفظ إلى التعامل معه كمجال لإعادة القراءة والتفكير والنقد.

1/ جورج زيدان والرواية التعليمية التاريخية:

يُعدّ جورج زيدان (1861–1914) واحدًا من أبرز رواد النهضة الأدبية والفكرية في المشرق العربي، ومن المؤسسين الفعليين لفن الرواية التاريخية التعليمية في الأدب العربي الحديث، فقد انطلق زيدان من خلفية موسوعية جمعت بين التاريخ والصحافة والفكر القومي، ليحوّل التاريخ العربي والإسلامي إلى مادة سردية تتجاوز جفاف التوثيق إلى أسلوب قصصي مشوّق يهدف إلى تثقيف القارئ العربي وإحياء الذاكرة الجمعية.

لقد جاء مشروع زيدان السردي في سياق التحولات الفكرية التي عرفها المشرق العربي أواخر القرن التاسع عشر، زمن الدعوات إلى الإصلاح والنهضة وبروز الحاجة إلى إعادة قراءة التاريخ في ضوء مفاهيم جديدة كالوطنية والعقلانية والعلم، ومن هنا، اختار زيدان أن يجعل من الرواية أداة لتنوير المجتمع عبر التاريخ، مستلهمًا النموذج الأوروبي في الرواية التاريخية، خاصة ما كتبه والتر سكوت(Walter Scott) ، لكن ضمن إطار عربي إسلامي يكرّس الهوية الثقافية العربية.

كتب زيدان أكثر من ثلاثٍ وعشرين رواية تاريخية تحت عنوان جامع هو روايات تاريخ الإسلام، تناولت فترات متعددة من التاريخ الإسلامي منذ ظهور الإسلام حتى العهد العثماني، من أشهرها: العباسة أخت الرشيد، فتاة غسان، صلاح الدين الأيوبي،17 رمضان، أرمانوسة المصرية، وقد اتسمت رواياته بخصائص فنية ومعرفية واضحة يمكن تلخيصها فيما يلي:

- **الوظيفة التعليمية والتثقيفية:**

حرص جورج زيدان على أن تكون رواياته وسيلة من وسائل التعليم غير النظامي، فحوّل المادة التاريخية الجافة إلى نصوص سردية مبسطة يمكن أن تصل إلى جمهور واسع من القرّاء، في زمن كانت فيه نسبة الأمية مرتفعة، والمعرفة التاريخية محدودة عند العامة، لقد أدرك زيدان أن الرواية، بما تمتلكه من عناصر التشويق والحوار والحدث، قادرة على أداء وظيفة التثقيف والتنوير بطريقة أكثر تأثيرًا من الكتب التاريخية التقليدية.

انطلاقًا من هذا التصور، صاغ زيدان رواياته بأسلوب سلس وواضح، يخلو من الغموض أو التعقيد الفني، ويقوم على تبسيط الوقائع التاريخية وإعادة عرضها في سياق قصصي ممتع، بحيث يتابع القارئ أحداث الماضي وكأنها جزء من حاضره، فالرواية عنده ليست مجرد متعة جمالية، بل أداة لتشكيل الوعي الجمعي وربط الإنسان العربي بماضيه المجيد، في محاولة لبناء وعي قومي وتاريخي موحد في ظل الضعف السياسي والثقافي الذي كانت تعرفه الأمة العربية في أواخر القرن التاسع عشر.

لقد جعل زيدان من نصه السردي مرجعًا تربويًا بالدرجة الأولى، يستهدف من خلاله ترسيخ قيم الانتماء والاعتزاز بالتاريخ العربي والإسلامي، وإحياء النماذج البطولية المشرقة التي تجسد الشجاعة والعدل والعلم والإيمان، ومن هنا، يمكن القول إن رواياته جاءت في خدمة المشروع النهضوي والإصلاحي الذي كانت تنادي به الصحف والمدارس آنذاك، مثل جريدة الهلال ومجلة المنار.

كما أن هذه الوظيفة التعليمية عند زيدان تتجاوز الجانب التاريخي إلى البعد الأخلاقي والاجتماعي، فهو يقدم التاريخ كمدرسة للعبرة، ويربط بين الأحداث الماضية والسلوك الإنساني في الحاضر، فالقارئ يتعلم من خلال الرواية أن القيم التي سادت في العصور الذهبية هي ذاتها التي يجب أن تُستعاد لبناء النهضة الحديثة.

ومن هذا المنظور، يمكن القول إن الرواية التعليمية التاريخية عند زيدان كانت مشروعًا حضاريًا، يسعى إلى دمقرطة المعرفة، وجعل التاريخ في متناول جميع الفئات الاجتماعية، عبر قالب أدبي يجمع بين الإفادة والمتعة، وهي خطوة أساسية في مسار تطور الرواية العربية، إذ مهّدت الطريق أمام تحوّل الرواية من وسيلة للتعليم إلى فضاء فني للتأمل والابتكار مع الأجيال اللاحقة.

- **السرد التوثيقي القائم على الحدث عند جورج زيدان:**

يقوم البناء السردي في روايات جورج زيدان على ما يمكن تسميته بـ السرد التوثيقي القائم على الحدث، أي ذلك النوع من السرد الذي يقدّم الوقائع التاريخية بوصفها محورًا رئيسيًا يدور حوله النص، ويمنحها سلطة مركزية تحدد مسار الأحداث وتوجّه حركة الشخصيات، فقد كان زيدان مؤرخًا قبل أن يكون روائيًا، ينظر إلى المادة التاريخية بعين الباحث الحريص على الدقة والأمانة أكثر من نظرته إلى الجوانب الجمالية أو التحليل النفسي للشخصيات.

لذلك، تركّز رواياته على الوقائع الكبرى في التاريخ العربي والإسلامي: تأسيس الدول، سقوطها، الصراعات السياسية والعسكرية، واللحظات المفصلية التي شكّلت تحوّلات حضارية كبرى، فالرواية عنده ليست فضاء لتجريب الوعي أو تحليل الذات، بل هي مرآة للحدث التاريخي نفسه، فحين يكتب صلاح الدين الأيوبي أو العباسة أخت الرشيد، فإن اهتمامه الأول ينصرف إلى عرض تسلسل الأحداث التاريخية، وتبيان أبطالها وأثرهم في التاريخ، أكثر من سعيه إلى بناء حبكة معقّدة أو صراع داخلي عميق.

تظهر الشخصيات في روايات زيدان بوصفها رموزًا أو أدوات لخدمة الحدث التاريخي، فهي نمطية في كثير من الأحيان، تنقسم بوضوح بين الخير والشر، والإيمان والخيانة، والنبل والانحطاط، فالبطل عنده يجسّد الفضيلة والنخوة، والخصم يمثل الخيانة والضعف، في إطار أخلاقي واضح يسهل على القارئ

استيعابه، وهذا ما يجعل السرد عند زيدان أقرب إلى التوثيق التاريخي منه إلى التحليل النفسي أو الجمالي الذي سيسود لاحقًا عند الروائيين المحدثين.

كما يعتمد زيدان في بنائه السردي على التتابع الزمني الخطي للأحداث، دون استخدام التقنيات الحديثة كالفلاش باك أو تعدد وجهات النظر، لأن غايته الأساسية هي الحفاظ على الوضوح التاريخي وتسلسل الوقائع كما وردت في المصادر الأصلية، وغالبًا ما يبدأ رواياته بمقدمة تاريخية يحدد فيها الزمان والمكان والشخصيات الواقعية، ثم يدخل إلى الأحداث بروح الراوي العالم بكل شيء، مما يجعل النص أقرب إلى السرد التاريخي التقليدي ذي الطابع التعليمي.

ومع أن هذا النمط من السرد قد يبدو محدودًا من الناحية الفنية، إلا أنه يعبّر عن مرحلة تأسيسية في تطور الوعي السردي العربي، فقد كان زيدان يسعى من خلال توثيقه الدقيق للأحداث إلى ترسيخ الثقة بالتاريخ العربي والإسلامي، وإثبات أن الأمة تمتلك رصيدًا حضاريًا يمكن البناء عليه، وبذلك، قدّم نموذجًا سرديًا يجمع بين المعلومة التاريخية والبعد القومي، ممهدًا الطريق أمام تحوّل الرواية العربية لاحقًا إلى شكل أكثر حرية وتخييلًا مع رواد القرن العشرين.

- **اللغة والأسلوب عند جورج زيدان:**

تميّز جورج زيدان في رواياته التاريخية بلغةٍ واضحةٍ ومباشرةٍ بعيدة عن الزخرفة البلاغية أو التعقيد الإنشائي، إذ كانت غايته الرئيسة التبليغ والتثقيف لا الإبهار الجمالي أو التجريب الفني، وقد اختار عن قصدٍ أن يكتب بلغةٍ متوسطة بين الفصحى الكلاسيكية ولغة الحياة الحديثة، ليُقرّب المادة التاريخية إلى القارئ العام، خصوصًا في زمنٍ كان فيه التعليم محدودًا والنفاذ إلى المعرفة مقتصرًا على النخبة، كانت لغته بذلك أداة وظيفية للتنوير ونشر الوعي القومي والتاريخي، أكثر من كونها وسيلة للتجريب الأدبي.

يتصف أسلوب زيدان بـ السرد التقريري الخطي الذي يسير وفق تسلسلٍ زمنيٍّ للأحداث دون تعقيد في البنية أو كسرٍ للتتابع المنطقي، فهو يقدّم الوقائع التاريخية بروح المؤرخ أكثر من روح الروائي، ما جعل أعماله أقرب إلى الوثيقة السردية التعليمية منها إلى الرواية الفنية بالمعنى الحديث، وغالبًا ما يهيمن في نصوصه الراوي العليم الذي يوجّه القارئ ويفسر الأحداث، ويضيف ملاحظاته الفكرية أو الأخلاقية بصيغةٍ مباشرة، مما يجعل السرد أقرب إلى الخطاب التربوي منه إلى التمثيل الجمالي للحياة.

أما من الناحية الأسلوبية، فتعتمد روايات زيدان على الحوار التوضيحي الذي يُستخدم كوسيلة لشرح خلفية الأحداث أو تبسيط المعلومات التاريخية، لا كأداةٍ للكشف عن مكنونات الشخصيات أو لتوليد الصراع

الدرامي كما هو الحال في الرواية الفنية الحديثة، فالحوار عنده غالبًا ما يُدرج لتقديم المعلومة لا لإثراء البناء الفني، وهو ما ينسجم مع رؤيته للرواية بوصفها وسيلة لتربية الوعي القومي وغرس قيم النهضة.

ورغم أن هذا الأسلوب قلّل من القيمة الجمالية والفنية لأعماله، إلا أنه مكّنه من الوصول إلى جمهور واسع وجعل رواياته من أكثر النصوص انتشارًا في عصرها، كما أسهم في تأسيس لغة سردية عربية حديثة، قادرة على نقل المعرفة التاريخية إلى المجال الأدبي دون أن تنفصل عن الفصحى، وبذلك، يمكن القول إن زيدان أسّس لمرحلة انتقالية في النثر العربي الحديث، جمعت بين التبسيط المعرفي وروح النهضة، ومهّدت الطريق أمام تطوّر اللغة الروائية العربية في العقود اللاحقة، كما نجدها لاحقًا عند الكتاب توفيق الحكيم وطه حسين ونجيب محفوظ الذين طوروا هذا الإرث باتجاهٍ جمالي وفني أعمق.

- **الغاية القومية والنهضوية عند جورج زيدان:**

على الرغم من الطابع التعليمي الواضح في روايات جورج زيدان، فإن مشروعه السردي يتجاوز حدود التثقيف التاريخي إلى أفقٍ أوسع هو البعث القومي والنهضوي، فقد رأى زيدان في التاريخ العربي والإسلامي مرجعًا للهوية الجماعية، ومصدرًا لإلهام الأمة العربية في زمنٍ كانت فيه تعاني من الاستعمار والانقسام الثقافي والسياسي، ومن ثمّ، جاءت رواياته لتغرس في الوعي العام فكرة الانتماء إلى حضارةٍ مجيدة، تستحق أن تُستعاد روحها عبر التنوير والمعرفة.

إن اختياره لشخصياتٍ وأحداثٍ من عصور الازدهار الإسلامي، مثل الخلافة العباسية أو الفتح الأندلسي أو الحروب الصليبية، لم يكن اختيارًا عشوائيًا، بل اختيارًا رمزيًا يعكس رغبته في استعادة الوعي القومي العربي وتوحيد الذاكرة التاريخية، فقد أراد أن يُقدّم من خلال الرواية نموذجًا للمجد العربي المفقود، وأن يربط القارئ المعاصر بجذوره الحضارية في مواجهة التيارات الاستعمارية والفكر الغربي المتعالي على الشرق.

كما يتجلى في خطابه السردي بعدٌ إصلاحيٌّ تنويريٌّ واضح؛ إذ يدعو إلى العلم، والتسامح، والعقلانية، ويعارض الخرافة والانغلاق، فالتاريخ عنده ليس مجرد سجل للماضي، بل هو أداة لبناء الحاضر والمستقبل، وهكذا تتحول الرواية عند زيدان إلى مشروع فكري يسعى إلى تأسيس وعيٍ عربيٍّ حديث، يجمع بين الهوية والنهضة، ويوازن بين الاعتزاز بالماضي والانفتاح على الحداثة.

إن الغاية القومية والنهضوية هذه تُعدّ من أبرز ملامح ريادة زيدان، إذ جعل من الرواية وسيلةً للتنوير والتربية الوطنية، وهو ما يفسّر تأثيره الواسع في جيله من المفكرين والقراء، فقد كان يسعى إلى بناء

أمةٍ تعرف تاريخها لتستعيد فاعليتها الحضارية، وهذا ما جعل مشروعه الروائي جزءًا من الخطاب النهضوي العربي العام الذي حمل لواءه مثقفو المشرق في مطلع القرن العشرين.

- **تأثره بالمناهج الغربية:**

لقد تأثر جورج زيدان بعمقٍ بالنموذج الغربي للرواية التاريخية، وبخاصة روايات والتر سكوت في إنكلترا وألكسندر دوما في فرنسا، وهما من أبرز من أسّسوا لفن الرواية التاريخية في أوروبا القرن التاسع عشر، فقد رأى زيدان في هذا النمط السردي وسيلةً تجمع بين المتعة والفائدة، وتتيح للكاتب أن يُقدّم التاريخ في صورةٍ حيةٍ قريبةٍ من الناس، بدل أن يبقى حبيس الكتب المدرسية أو السجلات الرسمية.

إلا أنّ زيدان لم يقتبس هذا النموذج على نحوٍ آلي، بل أعاد تشكيله في سياق عربي وإسلامي، مستبدلًا البيئة الأوروبية بسياقاتٍ من التاريخ الإسلامي والعربي الوسيط، مثل الفتح الإسلامي، والحروب الصليبية، والدولة الأموية والعباسية، وغيرها من المحطات التي أراد من خلالها أن يعيد وصل القارئ العربي بماضيه المجيد، وبذلك، تحوّلت الرواية التاريخية في يده إلى أداة لإحياء الوعي القومي والنهضوي أكثر من كونها مجرد محاكاة شكلية للنموذج الغربي.

لكن من أبرز ما أُخذ على جورج زيدان من قبل النقاد والمفكرين العرب هو تأثره المفرط بالنموذج الأوروبي في النظر إلى التاريخ، بحيث تحوّل التاريخ عنده من فضاءٍ إيمانيٍّ متجذر في الوعي الإسلامي إلى موضوع ثقافي وعقلي بحت، يُتناول بروح المؤرخ الغربي لا بروح المسلم المتأمل في مقاصد التاريخ وحركته الحضارية، فقد حاول زيدان أن يطبّق منهج التاريخ الوضعي الأوروبي القائم على تحليل الوقائع والأحداث بمعزل عن بعدها الديني أو القيمي، وهو ما جعل رؤيته للتاريخ الإسلامي أقرب إلى الرؤية التاريخانية العلمانية التي تُفصل بين الدين والحضارة.

وقد لاحظ عدد من النقاد، مثل عبد المحسن طه بدر ومحمد يوسف نجم، أنّ زيدان نظر إلى التاريخ الإسلامي من الخارج لا من الداخل؛ أي من منظور ثقافي يستلهم النموذج الغربي في فهم التطور الاجتماعي والسياسي، دون أن يستبطن روح الرسالة الإسلامية التي شكّلت جوهر الحضارة العربية، فهو في معالجته للحوادث التاريخية – كما في فتح الأندلس أو العباسة أخت الرشيد – يتعامل مع التاريخ كموضوع ثقافي يهدف إلى التنوير والمعرفة، لا ككيانٍ روحيٍّ يستمد معناه من الإيمان والتجربة الدينية.

ومن هنا جاء النقد الذي يرى أن زيدان – رغم نواياه النهضوية – أضعف البعد الروحي في التاريخ الإسلامي، وحوّل السرد إلى أداة تعليمية محايدة، تخلو من الحسّ الديني الذي يربط الإنسان بالمطلق، وهو

ما جعل بعض المفكرين المعاصرين، مثل مالك بن نبي لاحقًا، يرون أن النهضة العربية لم تكن حقيقية لأنها تبنّت أدوات الغرب دون جوهره الروحي، وهو ما يمكن إسقاطه جزئيًا على تجربة زيدان الأدبية.

ورغم ذلك، ينبغي الإنصاف بالقول إنّ زيدان لم يكن معاديًا للدين، بل حاول أن يقدّم الإسلام في صورةٍ حضاريةٍ عقلانيةٍ منفتحة، لكنه اختزل التجربة الإسلامية في بعدها الثقافي متأثرًا بالمنهج التاريخي الأوروبي الذي كان سائدًا في الجامعات والمجلات الفكرية بمصر في عصره، مثل الهلال والمقتطف. وبذلك، مثّل زيدان حلقةً انتقالية بين الفكر الإسلامي النهضوي والفكر التاريخي التنويري، بحدوده ومكاسبه معًا.

لقد كان هدفه الأساسي هو أن يجعل من التاريخ مادةً حية تُلهم الحاضر، كما فعل سكوت ودوما مع التاريخ الأوروبي، لكنه سعى من خلالها إلى إعادة بناء الذات العربية وإبراز قدرتها على الإبداع والنهضة، ومن هنا تأتي أهمية تجربته: فهي تزاوج بين المنهج الفني الغربي والغاية الفكرية النهضوية في إطارٍ سرديٍّ عربيٍّ خالص.

- **تحليل نماذج من روايات جورج زيدان:**

يُعدّ جورج زيدان من أبرز الروائيين الذين مزجوا بين المعرفة التاريخية والسرد القصصي في الأدب العربي الحديث، وقد تجسدت رؤيته الفكرية والفنية في عدد من رواياته التاريخية التي شكّلت ملامح مشروعه النهضوي، ومن أبرزها: العباسة أخت الرشيد (1899)، فتاة غسان (1897)، وفتح الأندلس (1892)، وهي روايات تُمثل نماذج متكاملة لأسلوبه ومنهجه في الكتابة التاريخية.

في رواية "**العباسة أخت الرشيد**"، يجسّد زيدان الوظيفة التعليمية والتثقيفية بوضوح؛ إذ يستحضر مرحلةً زاخرة من التاريخ العباسي، فيعرض من خلالها حياة القصور وصراعات السلطة بأسلوبٍ مبسّطٍ يربط القارئ بعظمة الماضي العربي، غير أنّ هذا العرض يظلّ أقرب إلى التوثيق التاريخي منه إلى الفن الروائي، فالشخصيات تتحرك كرموزٍ للأخلاق أو السياسة أكثر من كونها كائناتٍ بشريةٍ حقيقية، وهو ما يجعل الرواية مثالًا واضحًا على السرد التوثيقي القائم على الحدث.

أما رواية "**فتاة غسان**"، فهي من أوائل المحاولات التي عبّر فيها زيدان عن الغاية القومية والنهضوية؛ إذ يصوّر من خلالها سقوط دولة الغساسنة قبيل الفتح الإسلامي، في محاولة لإبراز فكرة الوحدة العربية والدفاع عن الهوية أمام الغزو الأجنبي، وتكشف الرواية عن اهتمامه بالتاريخ كوسيلةٍ لبناء الوعي الجمعي وإحياء الفخر القومي، لا كمجرد تسجيل للماضي، غير أن البعد الفني فيها ظلّ محدودًا بسبب اعتماد الكاتب على اللغة التعليمية التوضيحية والحوار المباشر الذي يخدم الفكرة لا الجمال الفني.

أما رواية "**فتح الأندلس**"، فتجسّد بوضوح تأثر زيدان بالمنهج الأوروبي في معالجة التاريخ؛ إذ يتبنى أسلوبًا قريبًا من روايات والتر سكوت في تصوير البطولة والحبكة الرومانسية، لكنه يفرغها في سياقٍ إسلاميٍّ حضاريٍّ يدعو إلى النهضة، ومع ذلك، يُلاحظ عليه – كما أشار النقاد – أنه يتناول التاريخ الإسلامي كموضوع ثقافي وإنساني أكثر منه تجربة دينية روحية، وهو ما يعكس تأثره بالفكر التاريخي الأوروبي الذي يفصل بين العقيدة والتاريخ.

ومن الناحية اللغوية والأسلوبية، تتسم هذه الروايات الثلاث بلغةٍ عربيةٍ فصيحةٍ لكنها ميسّرة، قريبة من لغة الصحافة والتعليم في عصر النهضة، وهي لغة وظيفية تهدف إلى الإفهام لا الإبداع، وتغلب عليها النزعة التوضيحية والوعظية. أمّا من حيث البناء، فيعتمد زيدان في الغالب على الحدث المركزي الذي يتطور خطيًا حتى النهاية، مع حضورٍ خافتٍ للعقدة أو التحليل النفسي.

في المحصلة، تُظهر هذه النماذج أن زيدان كان يسعى إلى إحياء التاريخ لا إلى إعادة تخييله، وأن غايته الأساسية كانت تعليمية ونهضوية، بينما ظلّ الجانب الجمالي الفني محدودًا، فمشروعه يندرج ضمن مرحلة التأسيس والتنوير التي سبقت النضج الفني للرواية العربية، ومع ذلك، تبقى أعماله بمثابة اللبنة الأولى التي مهدت الطريق لظهور الرواية التاريخية الحديثة عند كتّاب أكثر عمقًا في البنية الفنية والفكرية مثل علي أحمد باكثير ونجيب محفوظ.

إن هذا النمط من الرواية، رغم ما يُؤخذ عليه من ضعف فني ومحدودية في التخييل والعمق النفسي، إلا أنه مثّل مرحلة تأسيسية لا غنى عنها في تطور الرواية العربية، فقد قدّم زيدان للقارئ العربي نموذجًا سرديًا يجمع بين المعلومة التاريخية والمعنى القومي، وأسّس لوعي جديد يرى في الأدب وسيلة للتعليم والتنوير لا لمجرد التسلية.

2/ علي أحمد باكثير والرواية التاريخية:

يُعدّ علي أحمد باكثير (1910–1969) من أبرز المجدّدين في فنّ الرواية التاريخية العربية، إذ أحدث نقلة نوعية في هذا اللون الأدبي، بعد أن كانت عند جورج زيدان أقرب إلى التوثيق التعليمي والسرد المباشر للأحداث، فقد تجاوز باكثير هذا النمط إلى الرؤية الفنية والفكرية العميقة التي جعلت من التاريخ مرآةً للواقع ومجالاً للتأمل في قضايا الإنسان والمجتمع والحضارة.

لم يتعامل باكثير مع الماضي بوصفه مادة جافة تُروى أو تُستعاد، بل نظر إليه بوصفه أداة لبناء الوعي، ووسيلة لفهم الحاضر واستشراف المستقبل، ومن خلال أعماله الروائية، خاصة "وا إسلاماه" و"الثائر

الأحمر" و"سيرة شجاع"، استطاع أن يُعيد إلى الرواية التاريخية روحها الإسلامية ورسالتها الحضارية، مقدّمًا التاريخ في صيغة أدبية راقية تجمع بين التحليل النفسي، والبعد الرمزي، والرسالة الأخلاقية والفكرية.

لقد أصبح التاريخ عند باكثير حوارًا بين الأزمنة، يُستحضر فيه الماضي لا للحنين إليه، بل لاستخلاص العبر وتجديد الإيمان بقيم العدل والحرية والكرامة الإنسانية، وهكذا تحوّلت الرواية التاريخية على يده إلى فنّ تعبيري ناضج يربط بين الأصالة والمعاصرة، بين الفكرة والإبداع، وبين الواقع والرسالة.

- **الرؤية الفكرية والفنية:**

لم يتعامل علي أحمد باكثير مع التاريخ تعاملاً نقلياً تقليدياً، بل نظر إليه بوصفه فضاءً فكرياً خصباً لإعادة قراءة الحاضر من خلال الماضي، فالتاريخ عنده ليس سلسلة من الوقائع والأسماء، وإنما تجربة إنسانية متجددة تعبّر عن صراع القيم والمبادئ عبر الزمن، ومن هذا المنطلق، تحوّل التاريخ في رواياته إلى منصة للتفكير والنقد، وإلى مرآة يرى فيها القارئ هموم عصره وتحدياته من خلال شخصيات وأحداث الماضي.

كان باكثير يسعى عبر رواياته إلى نقد الواقع السياسي والاجتماعي الذي يعيشه العالم العربي والإسلامي، مبرزاً مظاهر الاستبداد، والانحراف الفكري، والضعف الأخلاقي التي تقود الأمم إلى السقوط، كما حدث في التاريخ، لذلك، جاءت رواياته محمّلة بروح الإصلاح والتنوير الإسلامي، حيث دعا إلى استعادة القيم الأصيلة التي شكّلت جوهر الحضارة الإسلامية، مثل العدل، والإيمان، والحرية، والوحدة.

إن الرؤية الفكرية عند باكثير تتجاوز مجرّد السرد الفني إلى رسالة ثقافية وروحية تهدف إلى بناء وعي حضاري جديد، يجعل من العودة إلى التاريخ انطلاقة نحو المستقبل لا مجرد حنين إلى الماضي، ومن ثمّ، فإن رواياته تمثل امتزاجاً خلاقاً بين الفكر والفن، وبين الموقف الإنساني والرؤية الجمالية، في إطار إيمان عميق برسالة الأدب وقدرته على التغيير.

- **البناء السردي:**

تميّزت روايات علي أحمد باكثير ببناء سردي متماسك يجمع بين البعد الدرامي والبعد الفكري، وهو ما يعكس خلفيته المسرحية العميقة التي انعكست بوضوح في أعماله الروائية، فقد كان باكثير يدرك أن السرد ليس مجرد وسيلة لنقل الحكاية، بل فضاء للحوار الجدلي بين الشخصيات والأفكار، ولذلك جاءت رواياته قائمة على التفاعل الدرامي، حيث تتصارع القيم والمواقف في حوارات مكثفة تفتح المجال أمام القارئ للتأمل والمساءلة.

إن الدرامية في نصوص باكثير لا تقتصر على الصراع الخارجي بين الشخصيات، بل تمتد إلى الصراع الداخلي النفسي والفكري، إذ تتحول الشخصيات إلى رموز للصراع الإنساني الأزلي بين الخير والشر، الإيمان والضلال، الحرية والاستبداد، وقد منح هذا الطابع الجدلي نصوصه طاقة فكرية كبيرة جعلتها تتجاوز حدود السرد التاريخي إلى مستوى الرواية الفلسفية ذات البعد الأخلاقي والروحي.

كما استفاد باكثير من التقنيات الحديثة في السرد، فوظّف تعدد وجهات النظر، بحيث لا يقدّم الحقيقة من زاوية واحدة، بل يترك المجال لتعدد الأصوات والرؤى، واستعمل الرمز والتناصّ الديني والتاريخي كآليات فنية تُثري المعنى وتعمّق الرؤية، ففي رواية "وا إسلاماه"، على سبيل المثال، يتحول التاريخ إلى رمز لنهضة الأمة من جديد، وتتحول الشخصيات إلى صور دلالية تعبّر عن قيم المقاومة والإيمان والصمود.

بهذا الشكل، قدّم باكثير بناءً سردياً يجمع بين التقنية الفنية والرسالة الفكرية، فكان السرد عنده وعياً بالكتابة وبالوظيفة الحضارية للأدب، لا مجرد حكاية عن الماضي.

- **الشخصيات:**

تتجلّى في روايات علي أحمد باكثير براعة فنية في بناء الشخصيات وتطويرها، إذ تخرج شخصياته من الإطار النمطي أو التبسيطي الذي طبع الرواية التاريخية التقليدية إلى مستوى العمق الإنساني والفكري، فهي ليست مجرد أدوات لخدمة الحدث التاريخي، بل كائنات حية تنبض بالفكر والصراع والوجدان، تعبّر عن رؤية الكاتب للإنسان والتاريخ والمصير.

تتحرك شخصيات باكثير في فضاء جدليّ يتجاوز حدود الزمان والمكان، فكلّ شخصية لديه تحمل دلالة رمزية وتجسّد موقفًا فكريًا أو أخلاقيًا، فـ قطز في رواية «وا إسلاماه» ليس بطلاً تاريخياً فحسب، بل رمز للنهضة والإيمان والانبعاث من الهزيمة، بينما يمثّل محمود بن منقذ صورة المثقف الواعي الملتزم بقضايا الأمة، في مقابل شخصيات أخرى ترمز إلى الخذلان، والجمود، والانهيار الأخلاقي، أما في "الثائر الأحمر"، فتتجلى شخصية كريم الدين بوصفها رمزا للمثقف المسلم الذي يواجه انحراف الفكر الماركسي، فيكشف باكثير من خلالها التناقض بين الإيمان والإلحاد، وفي "سيرة شجاع"، تتجاوز الشخصية التاريخ لتصبح رمزًا للشجاعة الإيمانية التي تواجه الظلم بالعدل، وتربط القوة بالفضيلة لا بالعنف.

إن الشخصيات في روايات باكثير تتطور مع تطور الحدث، في مسار درامي يعكس نضج الوعي وتحوّل الموقف، فهي شخصيات فاعلة، تتأمل وتختار وتقاوم، وليست محكومة بسرد خارجي يملي عليها مصيرها، ومن هنا، تبدو الشخصيات في عالم باكثير أقرب إلى الرموز الإنسانية العالمية التي تعبّر عن قيم تتجاوز حدود اللحظة التاريخية إلى الأبعاد الكونية الكبرى: الإيمان، الحرية، الكرامة، والعدل.

وتتميّز هذه الشخصيات كذلك بأنها تعيش صراعات داخلية بين الواجب والهوى، الإيمان والشك، مما يمنحها بعداً نفسياً غنياً قلّ أن نجده في الرواية التاريخية التعليمية، بهذا، استطاع باكثير أن يمزج بين التاريخ والإنسان، فحوّل الأبطال من مجرد أسماء ماضية إلى نماذج دائمة الحضور في ضمير الأمة وذاكرتها.

- **اللغة والأسلوب:**

تُعدّ اللغة عند علي أحمد باكثير أحد أبرز مكونات مشروعه الفني والفكري، إذ تتجاوز كونها أداة للتعبير إلى كونها عنصرًا جمالياً ورمزياً يعكس عمق رؤيته الحضارية والدينية، فقد تميزت لغته بكونها شعرية الإيقاع وقرآنية النَفَس، تستمد جمالها من روح البلاغة العربية القديمة، لكنها في الوقت نفسه تجدد في البنية والتعبير لتواكب حساسية العصر.

تمتاز لغة باكثير بالصفاء والدقة، فهي فصحى راقية تحافظ على أصالتها دون جمود، وتستمد طاقتها من البيان العربي القديم ومن الإيحاءات القرآنية التي تُكسبها بعدًا روحياً عميقاً، ومع ذلك، لم يسقط الكاتب في التكلّف أو التصنّع، بل مزج بين الفصحى التراثية في السرد والوصف، واللغة الحوارية المعاصرة في المواقف الدرامية، مما جعل أسلوبه قريباً من المتلقي، متنوع الإيقاع، وحيّاً بالحركة والحسّ.

كما اتّسم أسلوبه بـ الاقتصاد اللغوي والكثافة الدلالية، خصوصاً في الحوارات التي تجمع بين العمق الفكري والإيحاء الجمالي، فالحوار عند باكثير ليس مجرد تبادل كلامي بين الشخصيات، بل وسيلة لعرض الأفكار والصراعات الفكرية والنفسية في إطار فنيّ مشوّق، وغالباً ما تتخلل نصوصه عبارات ذات طابع تأملي أو خطابي تستمد قوتها من النظم القرآني أو من الحكمة العربية، فتضفي على السرد بعدًا روحياً وفلسفياً مميزاً.

وبفضل هذا التوازن بين الجزالة والوضوح، استطاع باكثير أن يجعل لغته جسرًا بين التراث والحداثة، وأن يخلق أسلوبًا خاصًا به يميّزه عن غيره من الروائيين العرب، حيث تبدو لغته في آنٍ واحد مقدّسة الجذر وحديثة الروح، تعبّر عن فكر متجذر في الإسلام، ومنفتح على قضايا الإنسان الكونية.

- **البعد الديني والروحي:**

يشكل البعد الديني والروحي محوراً أساسياً في تجربة علي أحمد باكثير الروائية، إذ أعاد من خلاله إلى الرواية التاريخية العربية روحها الإسلامية المفقودة التي غابت عند كثير من الرواد الأوائل مثل جورج زيدان، الذي تعامل مع التاريخ بوصفه مادة معرفية وثقافية أكثر من كونه رؤية إيمانية، أما باكثير، فقد

جعل من التاريخ منطلقاً لفهم السنن الإلهية في قيام الأمم وسقوطها، ومن الأدب وسيلة للتربية الروحية والفكرية معًا.

في رواياته يتجلى هذا البعد بوضوح؛ إذ لا يكتفي الكاتب بسرد الأحداث، بل يغوص في المعنى القيمي والإيماني الكامن وراءها، ليبرز أن الانحراف عن مبادئ الإسلام يؤدي حتماً إلى الهزيمة والانكسار، وأن النهوض الحقيقي يبدأ من إحياء العقيدة وتجديد الوعي الروحي.

لقد قدّم باكثير من خلال شخصياته رموزاً تمثل القوة المستمدة من الإيمان في مواجهة الطغيان والمادية والانقسام، فالتاريخ لديه ليس سردًا لأبطال أو ملوك، بل رحلة إنسانية للبحث عن الحقيقة واستعادة المعنى، ومن هنا، يتخذ السرد عنده بعداً وعظياً عميقاً، دون أن يتحول إلى خطاب مباشر، بل يُصاغ في نسيج فني يجمع بين الجمال الروائي والتأمل الفلسفي.

يؤمن باكثير أن الرسالة الأدبية لا تنفصل عن الرسالة الدينية، وأن الفن الإسلامي ليس وعظاً جافاً، بل جمالٌ يحمل الإيمان في عمقه، لذلك جاءت أعماله متشبعة بروح القرآن والسنة، معبرة عن رؤية حضارية تؤكد أن الإسلام ليس تراثاً ماضوياً، بل مشروعاً أخلاقياً وإنسانياً متجدداً.

وبهذا، يمكن القول إن باكثير قد وحّد بين الفن والإيمان، فصاغ تجربة روائية تجمع بين السمو الروحي والدقة الفنية، لتكون أعماله نموذجاً للرواية التاريخية ذات الرسالة الإنسانية العميقة، التي ترى في الدين قوة حياةٍ لا ماضٍ منسيّاً.

- **النقد والمكانة الأدبية:**

حظيت أعمال علي أحمد باكثير باهتمام نقدي واسع لما قدّمته من تحوّل نوعي في بنية الرواية التاريخية العربية، إذ تمكّن من المزاوجة بين الوعي الفني العميق والرسالة الفكرية الملتزمة، فقد نظر النقاد إلى باكثير باعتباره حلقة الوصل بين الرواية التاريخية التعليمية في القرن التاسع عشر، والرواية الفنية الناضجة في القرن العشرين، لما أضافه من تجديد في اللغة، والبناء، والرؤية.

يرى الدكتور عبد المحسن طه بدر أن باكثير «حرّر الرواية التاريخية من التبسيط التعليمي إلى الفن الواعي»، مؤكدًا أنه استطاع أن يرفع هذا اللون من الأدب إلى مستوى التعبير الجمالي والفكري الراقي، كما يرى الناقد محمود أمين العالم أن باكثير مثّل نموذج الكاتب الملتزم بقضايا أمته دون أن يفقد الحسّ الفني، إذ جعل من الأدب أداة لبناء الوعي الحضاري والإيماني.

وقد أجمع النقاد المحدثون على أن باكثير كان من الرواد المؤسسين للرواية التاريخية الجمالية في الأدب العربي الحديث، لأنه تجاوز الطابع المدرسي والوثائقي إلى رؤية فلسفية وإنسانية شمولية، تتأمل التاريخ من زاوية الوجود الإنساني والقدر الحضاري للأمم، ومن خلال أعماله، خصوصًا «وا إسلاماه» و«الثائر الأحمر»، وضع أسس الرواية الإسلامية الحديثة التي تجمع بين الأصالة والتجريب، وبين الوعي الديني والخيال الفني.

وتتجلى مكانة باكثير أيضًا في تأثيره على أجيال لاحقة من الكتّاب، الذين وجدوا في تجربته نموذجًا للكاتب الذي يوفّق بين الفن والإيمان، وبين الجمال والرسالة، وهكذا استقرّ اسمه في تاريخ الأدب العربي الحديث باعتباره رائد الوعي الجمالي في الرواية التاريخية الإسلامية، وصوتًا مميزًا في مسار تطور السرد العربي.

نقل علي أحمد باكثير الرواية التاريخية من مرحلة السرد التوثيقي عند جورج زيدان إلى مرحلة الإبداع الفني والفكر الإصلاحي الإسلامي، فحوّل التاريخ من مادة تُروى إلى رؤية حضارية حية تستلهم الماضي لتبني المستقبل.

3/ المقارنة بين جورج زيدان وعلي أحمد باكثير في الرواية التاريخية

العنصر	جورج زيدان(1861–1914)	علي أحمد باكثير(1910–1969)
الرؤية الفكرية	ركّز على **تبسيط التاريخ العربي والإسلامي** لجمهور القراء، بهدف نشر الثقافة والوعي التاريخي، وكان هدفه الأساسي **تعليميًا وقوميًا تنويريًا**، لا فنيًا بحتًا. ينظر إلى التاريخ بوصفه **مادة للمعرفة**.	جعل التاريخ **وسيلة للتفكير في الحاضر** لا غاية في ذاته، فالتاريخ عنده وعيٌ حضاري ورسالة إيمانية، وتناول الماضي من أجل **نقد الواقع وبناء الوعي**.
المنهج الفني والسردي	اعتمد السرد الخطي البسيط، القائم على **تتابع الأحداث التاريخية**، مع شخصيات نمطية وظيفية تخدم الحكاية، والسرد عنده توثيقي، أقرب إلى التأريخ منه إلى الفن.	اعتمد **البناء الدرامي والحوار الجدلي**، متأثرًا بالمسرح، واستعمل التناصّ القرآني والرمز والتعدد الصوتي، والسرد عنده فنيّ متشعّب ومؤوّل للتاريخ.
الشخصيات	شخصياته ثابتة نمطية (بطولية، خيّرة أو شريرة)، تخدم الحدث التاريخي فقط، لا عمق نفسي أو تطوّر داخلي.	شخصياته حية متطورة ذات **أبعاد فكرية وروحية**، تعبّر عن أزمة الإنسان العربي والمسلم، تحمل رموزًا دلالية ومعاني وجودية.
اللغة والأسلوب	لغة بسيطة، تعليمية، أقرب إلى لغة الصحافة والمقال التاريخي، تهدف إلى **الإيضاح لا الجمال**.	لغة شعرية قرآنية الإيقاع، تمتاز **بالجمال الفني والتكثيف البلاغي**، الحوار فيها عميق ومحمّل بالفكر والمعنى.

الغاية والرسالة	نشر الوعي القومي والعلمي، وربط القارئ بالماضي المجيد للعرب والمسلمين، لإحياء الاعتزاز بالهوية.	إحياء الروح الإسلامية في الوعي الحديث، والنهوض بالأمة من خلال **القيم الإيمانية** لا عبر تمجيد الماضي فقط.
التأثر بالغرب	تأثر بالرواية التاريخية الأوروبية، خصوصًا بوالتر سكوت وألكسندر دوما، وحاول نقل النموذج الغربي إلى البيئة العربية.	تأثر جزئيًا بالغرب في التقنية، لكنه **أسلم النموذج الفني** وأعاده إلى السياق الإسلامي والعربي.
القيمة النقدية والمكانة	يُعدّ رائد الرواية التاريخية العربية الأولى، وممهّد الطريق للفن الروائي الحديث، ونال تقديرًا لجهده التعليمي لا لعمقه الفني.	يُعدّ من **المؤسسين الجماليين للرواية التاريخية العربية**، جمع بين الفن والفكر، وأعاد للتاريخ بعده الإنساني والروحي.

من خلال هذه المقارنة، يمكن القول إن جورج زيدان مثّل المرحلة التأسيسية التنويرية للرواية التاريخية، حيث كان هدفه تثقيف القارئ العربي وربطه بماضيه بطريقة مبسطة، أما علي أحمد باكثير، فقد مثّل مرحلة النضج الفني والفكري، إذ تجاوز التوثيق التاريخي إلى التأويل الحضاري.